مدخل لدراسة الوعي التطبيقي للقرآن

الشيخ حسين شحادة

١ ـ لمحة عن القرآن والفن

لقد أطلق النصُّ القرآنيُّ مخيلة الإنسان وعقله باتجاه الوعي الكوني فلم يـر في الإبداع ضلالة كما لم ير في نهوض الإنسان بخلافته على الأرض بدعةً محرمة ما دام التوازن قائماً في حركة الانتقال والتواصل بين المجال الغيبي والمجال الدنيوي.

فنحن لا نعتبر النص القـرآني نصاً أخـروياً محضـاً، مع إيماننا العميق بأن العنصر الأخـروي يعتبر أساسياً في حقـل الثقافة القرآنية، ولا نعتبره نصـاً تمجيدياً مع إيماننا العميق بـأن التدبر في القرآن واستشراف تجلياتـه ضمن حركة التغيير ومقارعة التحديـات يمثل أرقى الوان التعبد لهذا النص المبارك.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ومن هنـا نجـد: أن سـؤال هل لا يـزال القرآنُ الكـريم يحتفظ حالياً باتجاهـه الكوني سؤالاً مثيراً لقلق الغـرب وباعثـاً على تربص ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

نعم إنّ النص القرآني ليس نصاً محايداً إنه يقحمنـا اقحامـاً في صلب التفـاعلات ومـا يـرشح عنهـا من جمالات تتجلى ضمنيـاً في عرق الكدح البشري وما يثيره هذا الكدح من مشكلات التصادم بين الزيف والحقيقة.

وهنا يجدر التأكيـد إلى أن النص القرآني، إذ يـواجــه الأسئلـة بـالأسئلـة وإذ يقـدمُ الإجابـات المختلفة والمتنوعة على أي عـلامة استفهـام تطـالُ المبتـدأ والمنتهى في مسيرة الإنسـان بالمنهج العلمـي والصورة الفنيـة، وإذ يقدم الحلول الناجعة لمشكلات الإنسان وأزماته، نقف على ضرورة التمايز بين الإجابة النهائية وبين الحل.

فالإجابة النهائية شأن من شؤون الخالق.

والحل شأن من شؤون الإنسان المحكوم للظروف الموضوعية، وإذن فالنص القرآني لا يتضمن حلولاً جاهزةً بمعزل عن إرادة الإنسان وجهاده وعمله وتقواه.

﴿ومن يتق الله يجعل له فرقاناً﴾.

﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾.

فآية اقرأ باسم ربك الذي خلق: تلخصُ لنا آفاق التجربة الإنسانية بأعظم حوار بين الإنسان والكون بلغةٍ تحرّض - الإنسان على التغيير والإبداع والجهاد. ذلك أن قدر هذا الإنسان المؤتمن على عمارة الأرض أن يعيد دائماً انتاج الحضارة بروح التوثب لإسقاط الظلم والانتصار للمظلوم.

فمن هذه المداخلة السريعة أقدم لخصوصيات العلوم والفنون القرآنية بالإشارة إلى أن النص القرآني ليس نصاً دائرياً مغلقاً ولا ينبغي له أن يكون كذلك.... لأن اللغة القرآنية تستمدُ مادتها الأساسية من الإنسان والكون. وجدل العلاقة بينهما.

فالقرآن الكريم لم يعمد إلى إنهاء العداوة بين الإنسان وأخيه فحسب بل أرسى قواعد المصالحة بين الإنسان والكون فألّف بين نبضة القلب واختلاجات الطبيعة بنبضة الحياة لأن أي تنافر أو عداوة بينهما من شأنه تعطيل التاريخ وتحنيط الحياة وبهذه اللفتة تصبحُ عنايةُ الباحثين عن خصوصيات العلوم والفنون القرآنية مدخلاً للموائمة بين القرآن والعلم.

فإذا كان الفن يملأ أحاسيسنا ويستحوذ على مشاعرنا بإثارة منازع التأمل والتفكير فينا فإنّ القرآن يخاطب العقل والقلب بالتصوير الفني الرائع واللغة الموسقة، المفتوحة على أبعد من هذا الكون الرحيب وإذا كان الفن يساعدنا على إدراك اللامرئي وتحسس الغيب كأنه محسوس مشاهد فإن القرآن الكريم في بيانه المعجز لا سيما في مجال القصة والمثال. يلقي بلمساته المشعّة لنقرأ ما لا يقرأ ونسمع ما لا يسمع. إذن فالعلم والفن يحتشدان في لغة القرآن بوصفهما من شروط قيام الإنسان بأعباء الحوار ومهماته وهو أي القرآن إذ يهدف إلى تعميق رؤية الإنسان عن الحياة الدنيا يرسم لهذه العلاقة منهجاً ونمطاً يمتاز بالشهودية والاستشهاد أي بوعي الارتباط بالغيب وبالحياة الأخرى المحفوفة بالمكاره والعقابيل.

٢ ـ حول أسباب النزول

لا نشك أن إعادة النظر في قراءة روايات أسباب النزول تشكل عاملاً مساعداً على وعي التفسير كما تشكل عاملاً أساسياً في إطار المشروع المرتجى لتوحيد الرؤية القرآنية لا

سيما في مجال التشريع وفقه العبادات والمعاملات.

فموضوع قراءة الملابسات التي اكتنفت نزول النص القرآني يجب أن تخضع للنقد والتحليل وفق القواعد العامة لدراسة الحديث والرجال وبذلك نتخلص من الكثير من المشاكل الفكرية والمذهبية التي فرضت نفسها على تطلعات التفكير الإسلامي الملوّث في مساحة واسعة منه بسموم الإسرائيليات حيث عاش المسلمون طيلة القرون الإسلامية الثلاثة الأولى بشكل خاص وما زالوا يعيشون مخاطر الخلافات السياسية والعنصرية والفقهية نتيجة التأثر بأكاذيب الأخبار المدسوسة في هذا الجانب الحيوي من مرتكزات التفسير وقواعده... ومما يؤسف له أن هذه المواد السامة والحارقة لا تزال متفشية في مفاصل الروايات التي تناولت أسباب النزول.

على أن السلطة الأموية قد لعبت دوراً مماثلاً في امتهان حرمة النص القرآني وتزوير دلالته حيث نقرأ على سبيل المثال «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» فيؤكدون نزولها في أبي طالب تارة وفي أم النبي (ص) تارة أخرى علماً بأن الآية والسورة مدنية... ولكنها الكراهية لعلي والرسول تعمي أبصارهم وبصائرهم عن الحق المبين.

... إن الإحاطة بالجو الذي نزلت فيه الآية ومعرفة القصة من وراء نزولها يعتبر ضرورياً في فهم النص القرآني حيث تتسعُ مداركنا للتطبيقات العملية لهذه الآية أو تلك من كتاب الله.

على أن ذلك لا يعني أن الوقوف على أسباب النزول وتفاصيل الحدث وجزئياته يعتبر تعطيلاً للنص واغلاقاً لمعناه وبعبارة أخرى أن الاهتمام بموارد النزول لا ينهي مفعول الآية الكريمة عند الحدث المؤطر زماناً ومكاناً بل أن الآية تبقى مفتوحة على واقع الحياة كُلّه لتعالج جميع الأحداث المشابهة والمماثلة؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون وقد نعرض في هذا السياق نموذجين ــ النموذج الأول قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

فقد نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة في حادثة معروفة في التاريخ والسيرة... إلا أن دلالتها المضيئة تشع كدرس كبير من دروس التوثيق العلمي وتحصين الفرد والمجتمع من أصابع المكر والدسيسة والتشويه.

النموذج الثاني في قوله تعالى:

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله وباليوم الآخر﴾.

فمن الممكن لأي قارىء في القرن الحديث أن يفهم دلالة الآية، ومعناها غير أن الاطلاع على أجواء الآية وأسباب نزولها يحرّك النص كأنه معيوش محسوس. فقد ورد أن سبب نزولها هو أن اليهود أكثروا من الكلام عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وجعلوا ذلك موضوعاً هاماً وكأنه غاية من غايات الدين فنزلت الآية الكريمة لتخرس ألسنتهم ولتقطع عليهم الطريق فليست الطاعة منحصرة في أمر التوجه شرقاً أو غرباً في الصلاة ولكن الطاعة في جوهرها عقيدة وإيمان والآية كما نرى تعطي القارىء في أي زمان ومكان درساً مفتوحاً من دروس المنهجية والتفكير الموضوعي السليم بأن الحكمة تقتضي دائماً الاهتمام بالجوهر قبل الاهتمام بالشكل والمظهر... لأن المضمون هو الذي يعطي للمظهر قيمة في الحياة بمعنى أن العبادة الفارغة من مضمون التوحيد لا أثر لها في تحرير النفوس والعقول والقلوب.

٣ - نظرة على آيات الأحكام

الحديث عن آيات الأحكام في القرآن الكريم -وهي آيات استوعبت جانباً أساسياً في كتاب الله - يعتبر من المهمات الصعبة لا سيما وأن التعرف على فحوى الحكم الشرعي في كثير من الحالات يعتبر عملاً علمياً معقداً لا بد أن يستنفد الجهد كله والعناء كله من ذوي الاختصاص في هذا المجال وهم فقهاؤنا الأعلام.

فآيات الأحكام في القرآن الكريم، لا تزال نابضة تجري لتنظيم شؤون المجتمع والدولة منسجمة مع فطرة الإنسان وانفتاحها على كل أبعاد وجوده، لترعاه رعاية شاملة تقوم على توجيهه وتسديده، آخذة بعين الاعتبار الظروف الواقعية والموضوعية لخصائص تكوين الإنسان وآماله في الحياة. مما يدعونا إلى الاعتراض على جميع الأنظمة الإسلامية الحديثة التي لا تحكم بما أنزل الله والتي لم تتبنى من آيات الأحكام سوى ما يتصل بقضايا الأحوال الشخصية، والتي أخضعت نظامها التشريعي للقانون الفرنسي وغيره من القوانين الوضعية، علماً أن المرونة التي تختزنها آيات الأحكام لا تتوفر في أي صيغ تشريعية أخرى بشهادة التاريخ والواقع... هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ إعادة النظر في آيات الأحكام لتلمس

المشروع الفقهي المتجانس لرسالتنا السمحاء يعتبر في هذا العصر مقدمة لتأسيس وعي فقهي يتنوع ضمن قاعدة التوحيد ويرافق تطور الحياة خاصة في الوقائع والأحداث الجديدة التي لم يرد فيها نص صريح أو مباشر.

وتلك طبيعة الاجتهاد كما يرى الشهيد الصدر كتخصص علمي في فهم مصادر التشريع واستخراج الأحكام الشرعية منها.

فمن الطبيعي أن تنمو خبرات المجتهدين وتتراكم لفتاتهم على مرّ الزمن لتكوّن للمجتهد المتأخر دائماً رصيداً أكبر وعمقاً أوسع في الاستنباط وهذا من الأسباب التي تدعو إلى عدم جواز جمود المقلدين على رأي فقيه من فقهاء عصر الغيبة طيلة قرن أو قرون لأن ذلك كالجمود على رأي طبيب. كذلك مع نمو الطب وتطوره وتراكم الخبرات تلك المدة.

ومن هنا كانت رابطة المقلد بالمرجع الديني رابطة حية متجددة باستمرار ويزيدها قدسية ما يتمثل في المرجع من نيابة عامة عن الإمام (ع).

وقد ندعو في هذا المجال إلى تأسيس المجامع الفقهية لتأخذ على عاتقها الإجابة على أسئلة العصر وتحدياته ولتنهض بروح النص القرآني إلى مواكبة الحدث زماناً ومكاناً فإن مجامع اللغة على أهميتها قد ساهمت في مطلع هذا القرن مساهمة فعالة باستيعاب التغيرات الحضارية فهل يكون بوسع المجامع الفقهية المرجوة انجاز الأمل الأخضر بمشروع فقهي إسلامي يؤسس للدولة العالمية وحكم الله.

لا تزال آيات الأحكام موضوعاً للخلاف الفقهي

ومن أبرز العوامل التي أدت لهذا الاختلاف:

١ ــ اختلاف مناهج التفسير وقواعده التفسير بالرأي التفسير العقلي، التفسير النقلي.,

٢ ـ الالتباس اللغوي وإشكالياته كتردد اللفظ وما يراد منه عموماً أو خصوصاً وكالاشتراك اللفظي والاختلاف في الإعراب وتردد اللفظ بين حمله على الحقيقة أو حمله على نوع من أنواع المجاز والاختلاف على تقييد المطلق وتخصيص العام.

٣ ــ اختلاف المناهج والأصول والمباني العامة المعتمدة في الاستنباط والاختلاف في مدى انطباق الكبريات على صغرياتها والاختلاف على ضوابط التشخيص.

٤ ـ الاختلاف في علاقة القرآن بالسنة وحاكمية النص القرآني على النصوص الشريفة الأخرى، والاختلاف على التأويل

والمتشابه من الآيات.

٥ ـ اقحام القياس والاستحسان في مجال التشريع.

٦ ـ انتشار ظاهرة الافتراء في مجاميع الروايات والدس والكذب على رسول الله (ص).

٤ ـ نحو قراءة ثانية للقرآن الكريم

في ضوء المفاهيم التي يطرحها القرآن الكريم عن الكون والإنسان والحياة وملامح التفاعل والتناسق بينها نقف على أسس الحضارة الإنسانية الشاملة.

ولأهمية النص القرآني ومركزيته في الثقافة وحضوره القوي في الحياة العربية نجد من الضروري الإجابة على جملة من الأسئلة:

أولاً: كيف نستعيد وشائج الصلة الحقيقية بين القرآن وأجيالنا الجديدة؟

ثانياً: كيف تتسع مساحة الوعي القرآني في وجدان الأمة فيتحول هذا الكتاب المقدس من كتاب النخبة الذي لا يفهمه إلا المتخصصون إلى كتاب للحياة يفهمه الجميع؟

ثالثاً: هل يجوز الاكتفاء بالنص القرآني المجرد لمواجهة تحديات النظام العالمي الجديد؟

رابعاً: ما هي القيود المفروضة على القرآن والتي شكلت على مدى تاريخنا العربي والإسلامي حائلاً يحجب عن أبصارنا وبصائرنا تجليات النص الأول؟

إن هذه الأسئلة التي ترى في النص القرآني موضوعاً للتأمل والتدبر تدعو في الوقت نفسه إلى إخضاع التفسير لقراءة نقدية تبتعد بنا عن التعصب والجمود وتفتح منافذ العقل والقلب على منابع الحركة والتجدد داخل الثقافة الإنسانية.. لا سيما وأن العصر الذي نعيش فيه كشهود على حيويته وتشابكه نرى أن كل النصوص قد تجاوزت محليتها ولم تعد ملكاً لثقافاتها الأم ولا شك أن علم التفسير لا يمكن أن يفهم اليوم بمعزل عن الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري للمفسرين ومذاهبهم حيث تداخل ذلك مع فهمهم للقرآن وتأويلهم لآياته.

ويبدو لي أن أبرز إشكاليات النص القرآني هو ـ الإشكال اللغوي حيث التبست اللغة كأداة تعبيرية في توصيل المعنى فاللغة على أحسن الفروض تغطي طرفاً يسيراً من المعنى إلاّ أنها لا تستطيع إعطاء المعنى كله، من هنا كانت اللغة مصدر خلاف دائم وصل في بعض المراحل إلى حد العداوة والقتال.

وفي ظل استشراء هذا الجدل والتناقض

والنزاع الذي أصاب العقل الإسلامي بإزاء فهم القرآن الكريم وما يحويه من أفكار، كان من الطبيعي أن يبرز موقف توفيقي يحاول المصالحة بين هذه المواقف المتضاربة . . . غير أن هذه المدرسة التوفيقية لا تقل خطورة عن الاختلاف . . .

إذن

هل نحن بحاجة في عصرنا الحاضر إلى قراءة ثانية تخضع الفهم القرآني كله والتفسير القرآني كله للفحص والنقد والتحليل وهل نحن بين يدي كتاب الله بحاجة إلى قراءة عصرية للقرآن أم أن الأهم من ذلك هو البحث عن المنهج لنتوفر على قراءة موضوعية؟

ربما يكون المدخل الملائم لفهم الإشكاليات هو فهم علاقة النص القرآني بالواقع التاريخي .

فالنص القرآني تنزل على قلب الحبيب المصطفى (ص) على فترات زمنية امتدت ربع قرن إذن فالعلاقة وثيقة جداً بين النص والواقع اليومي والتاريخي لزمن الرسول (ص) .

إلاّ أنّ المفكرين والباحثين الإسلاميين قد نزعوا دائماً لاعتبار النص القرآني مجالاً مفتوحاً بمجمله، فحتى الآية التي تصدر عن حدث خاص تصبح ذات مغزى عام تشارك فيه الأمة بأجمعها ولا شك أن هذه قراءة مشروعة وممكنة إلا أنها يجب أن تتأسى على القراءة التاريخية للنص من جهة وعلى قراءة المصاديق الخارجية للواقع اليومي وللحدث زماناً ومكاناً على قاعدة أن الرؤية القرآنية للحياة هي الرؤيا الكاملة والنموذجية وأن الحياة قد تنحرف وقد تستقيم وأن معيار الحياة هو القرآن وليست الحياة ولا الأحداث ولا الأشخاص هي معيارنا لفهم القرآن .

فعلينا أن نحمل أسئلتنا إلى القرآن دون أن نفرض عليه الإجابات الجاهزة كما فعل الكثير من أئمة المدارس الكلامية وعلينا أن نتقبل إجابات القرآن مهما كانت صارمة وحازمة .

إن القرآن الكريم عندما يتعرض إلى وصف مناهج الحكام في التغرير بالشعوب في آيات وقصص يستقي مادتها من الحدث التاريخي لا يتركنا دون أن يذكّرنا بجمر الواقع، لا يتركنا دون كي وإنذار، لافتاً إلى ضرورة إمعان النظر والتفكير فيما يدور في عصرنا من كوارث، وفيما نعيش فيه من هزيمة وفشل وخراب .

وعلى سبيل المثال . .

كيف نقرأ هذه الآية في ضوء ما جرى على صدورنا وأعراضنا ولحمنا في الخليج .

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا

زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾

إن الحديث عن القراءة الثانية للقرآن وما يترتب عليه من وعي الذات واكتشاف الهوية الناصعة . . . والحديث عن حضور النص القرآني وعمق تأثيره كان ولا يزال يتجوهر في المفاصل الحاسمة من تاريخنا .

فكلما أحسسنا أننا على عتبة تحول جديد وكلما اكتوينا بجمر الاصطدام بالحضارة الغربية الصفراء نلوذ بالقرآن غير أن شرر الاصطدام هذه المرة يشكل تحدياً جذرياً يكاد يهيمن على كل شيء ابتداء من الذل والاحباط واستلاب الشخصية إلى اغتصاب الأرض والنفط والمياه مروراً باغتصاب السلطة والحرية والمصير.

فهل تجيبنا القراءة الثانية : كيف نواجه التحدي والمصير؟